محمد عطية الإبراشي

سلسلة العظماء

صلاح الدين الأيوبي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د/على سامى النشار

الاسكندرية

سلسلة العظماء

صلاح الدين الأيوبي

تأليف

محمد عطية الإبراشي

حقوق الطبع محفوظة

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي
٥ شارع مصطفى كامل - بالقاهرة ت ٢٣٠٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

صَلاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ

يُعَدُّ صَلاحُ الدِّينِ مِنْ أَعظَمِ أَبطالِ الشَّرقِ . وَقَد كانَ قائِدًا عَظيماً ، يُعجَبُ بِهِ كُلُّ مَن يَرَاهُ ، وَيَحتَرِمُهُ أَصدِقاؤُهُ ؛ لِعَدلِه وَشَجاعَتِه ، وَنُبلِهِ وَإِنسانِيَّتِهِ ، وَعَطفِهِ وَشَفَقَتِهِ ، وَحِلمِهِ وَبُعدِ نَظَرِهِ ، وَذَكائِهِ وَفِطنَتِهِ ، وصَوابِ تَفكيرِهِ ، وَقُوَّةِ شَخصِيَّتِهِ ، وَكَثرَةِ تَجارِبه وَعَظَمَتِهِ .

وَقَد كَتَبَ عَن صَلاحِ الدينِ كَثيرٌ مِنَ القِصَصِ ، بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَاللُّغاتِ الأَورُبِيَّةِ . وَسَنَذكُرُ شَيئًا مِن هٰـذِهِ القِصَصِ . وَكُلُّها تُثبِتُ لَنا أَنَّهُ كانَ نَبيلَ

النَّفسِ ، كَرِيمَ الخُلُقِ ، كَثِيرَ الرَّحمَةِ ، يَتَأَلَّمُ لِغَيرِهِ ، وَيَحزَنُ لِحُزنِهِ ، وَيَعفُو عَن أَعدائِهِ ، وَيَصفَحُ عَن أَخطائِهِم وَغَلَطاتِهِم . وَكانَ مُصيبًا فى رَأيِهِ ، عادِلاً فى حُكمِهِ ، صادِقًا فى قَولِهِ ، وَفِيًّا بِوَعدِهِ . لَم يُخلِف الوَعدَ مَعَ أَحَدٍ مُطلقًا ؛ سَواءٌ أَكانَ صَديقًا أَم عَدُوًّا ، مُسلِماً أَم غَيرَ مُسلِمٍ .

وَقَد اعتَرَفَ لَهُ أَعداؤُهُ بِالعَظَمَةِ وَالبطولَةِ ، وَالشَّجاعَةِ النادِرَةِ . وَإِنَّ الصِّفاتِ الخُلُقِيَّةَ الَّتى اتَّصَفَ بِها صَلاحُ الدينِ جَعَلَتهُ بَطَلاً مِثالِيًّا مَشهورًا فى جَميعِ جِهاتِ العالَمِ .

وُلِدَ صَلاحُ الدينِ فى بَلدَةٍ صَغِيرَةٍ هِىَ تِكريتُ مِن بِلادِ العِراقِ سَنَةَ (٥٣٢ هـ — ١١٣٧ م) مِن أُسرَةٍ كُردِيَّةٍ كَرِيمَةِ الأَصلِ . وَقَد حَدَثَ أَنَّ حاكِمَ تِكريتَ أَمَرَ

بِطَرْدِ أَبِيهِ أَيُّوبَ ، وَعَمِّهِ أَسَدِ الدِّينِ شِيرِكُوه مِن تِكريتَ ، وَكَانَ ذٰلِكَ فى اللَّيْلَةِ الَّتى وُلِدَ فِيها صَلاحُ الدينِ يُوسُفُ ابنُ أَيُّوبَ ، فَتَشاءَمَ أَبوهُ كُلَّ التَّشاؤُمِ مِن وِلادَتِهِ ، حَتَّى أَرادَ أَنْ يَقتُلَهُ حِيناً سَمِعَهُ يَصيحُ ، وَالأُسرَةُ كُلُّها خارِجَةٌ مِن تِكريتَ إِلَى بَلدَةٍ أُخرَى . فَنَصَحَ لَهُ أَحَدُ الحاضِرينَ أَلاَّ يَمَسَّ هٰـذا الطِّفلَ البَرِىءَ ؛ لِأَنَّهُ لَم يَرتَكِبْ ذَنباً ، وَلَم يَشعُرْ بِما حَدَثَ لِأَبِيهِ ، وَلَم يَعرِفْ ما نَزَلَ بِهِ مِن الأَحزانِ وَالآلامِ . وَأَمَرَهُ بِالمُحافَظَةِ عَلَيهِ ، وَقالَ لَهُ : « أَرجُو أَن يَجعَلَ اللّٰهُ لِابنِكَ هٰـذا شَأناً عَظِيماً فى المُستَقبَلِ » .

رَحَلَتِ الأُسرَةُ مِن تِكرِيتَ ، وَتَرَكَها أَبوهُ وَعَمُّهُ وَالجَمِيعُ فى شِدَّةِ الكَدَرِ وَالحزنِ . وَانتَقَلَت إِلَى

المَوْصِلِ ، فَأَكرَمَها حاكِمُها كُلَّ الإِكرامِ ، وَكانَ قَد أَكرَمَهُ أَبو صَلاحِ الدينِ في تِكريتَ مِن قَبلُ ، فَرَدَّ لَهُ الجَميلَ ، وَأَعطاهُ وَأَعطى أَخاهُ ضَيعَةً (عِزبَةً) كَبيرَةً مِنَ الأَرضِ لِاستِثمارِها ، وَالانتِفاعِ بِها . وَعاشَت أُسرَةُ صَلاحِ الدِّينِ مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً بِالمَوصِلِ مِن بِلادِ العِراقِ .

وَرِثَ صَلاحُ الدِّينِ عَن أَبيهِ الذَّكاءَ وَالفِطنَةَ . وَلَمّا بَلَغَ مِنَ العُمرِ سِنَّ الدِّراسَةِ أَرسَلَهُ أَبوهُ إِلى المَدرَسَةِ ، وَاختارَ لَهُ أَحسَنَ المُعَلِّمِينَ ، وَاهتَمَّ بِتَعليمِهِ كُلَّ الاهتِمامِ ، فَتَعَلَّمَ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ ، ثُمَّ حَفِظَ القُرآنَ الكَريمَ ، وَدَرَسَ الحَديثَ الشَّريفَ ، وَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ وَقَواعِدَ النَّحوِ .

وَقَد عُرِفَ صَلاحُ الدينِ بِالهُدوءِ وَسُرعَةِ الفَهمِ مُنذُ الطُّفولَةِ ، فَكانَ وَهُوَ بِالمَدرَسَةِ هادِئَ الطَّبعِ ، جادًّا فى مُعامَلَتِهِ ، لا يُسمَعُ لَهُ صَوتٌ ، ولَا يَميــلُ إِلَى الاِستِهتارِ . وَكانَ يَختَلِفُ عَنِ الفِتيانِ الَّذينَ مِن سِنِّهِ ؛ فَهُوَ كانَ يُحِبُّ القِراءَةَ وَدِراسَةَ الـكُتُبِ ، وَالاِطِّلاعَ عَلَيها أَكثَرَ مِن حُبِّهِ لِلَّعِبِ ، وَهُم كانُوا يَجِدونَ لَذَّةً وَسُرورًا فى اللَّعِبِ أَكثَرَ مِنَ القِراءَةِ وَالتَّعَلُّمِ .

اِنتَقَلَت الأُسرَةُ إِلَى مدينَةِ دِمَشقَ مِن بِلادِ الشَّامِ . وَكانَ لِأَبيهِ مَنزِلَةٌ كَبيرَةٌ بِهـا . وَفى دِمَشقَ مَـكَثَ صَــلاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِىُّ أَكثَرَ مِن عِشرينَ سَنَةً من حَياتِهِ . وَقَد استَمَرَّ صَلاحُ الدِّينِ مُحِبًّا لِلقِراءَةِ وَالدِّراسَةِ وَالاِطلاعِ ، وَتَلَقَّى العِلمَ عَنِ العُلَماءِ ، وَدَرَسَ بِالجامِعِ

الأُمَوِىِّ الكَبيرِ ، وَكانَ يَميـلُ كَثيرًا إِلَى الاِستِماعِ لِلأَساتِذَةِ مِنَ العُلَماءِ وَالأُدَباءِ وَالفُقَهاءِ ؛ حَتَّى صارَ عالِمًا أَديبًا مُثَقَّفًا وَهُوَ شابٌّ .

وَلَم يَنسَ أَبوهُ أَن يُعلِّمَهُ الفُروسِيَّةَ ، كأَبناءِ الأَشرافِ وَالعَرَبِ ، وَيُمَرِّنَهُ عَلَى استِعمالِ أَدَواتِ الحَربِ ، وَطُرقِ القِتالِ ، فَأَظهَرَ مَهارَةً حَربِيَّةً كَبيرَةً أَدهَشَت أَباهُ . وَقَد ظَهَرَت فُروسِيَّتُهُ وَشَجاعَتُهُ وَإِقدامُهُ حينَما اشتَرَكَ فى الحَربِ .

وَقَد عُرِفَ صَـلاحُ الدِّينِ وَهُوَ شابٌّ بِالصَّلاحِ وَالتَّقوَى وَالتَّدَيُّنِ ، وَبُعدِ النَّظَرِ ، وَحُسنِ التَّفكيرِ ، وَالحِكمَةِ ، وَحَلِّ المُشكِلاتِ مِنَ الأُمورِ ، فَكانَ عَمُّهُ يَستَشيرُهُ فيما يَجِدُهُ مِنَ الصُّعوباتِ ، وَيأخُذُ بِرَأيِهِ ،

وَيَعمَلُ عَلَى تَنفيــذِهِ ؛ لِثِقَتِهِ بِهِ ، وبِصَوابِ رَأْيِهِ وَسَـــدادِهِ .

سَمِعَ صَلاحُ الدِّينِ كَثيرًا عَمَّا يُقاسِيهِ المُسلِمونَ عَلَى أَيدِي المُغيرِينَ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، وَسَمِعَ كَثيرًا عَمَّا يُصيبُهُمْ مِن أَنواعِ الذُّلِّ وَالتَّعذيبِ ، فَتَأَلَّمَ كُلَّ الأَلَمِ لِمَا أَصابَهُمْ ، وَحَزِنَ كَثيرًا لِآلامِهِم . وَقَرَأَ الكَثيرَ عَن أَبطالِ الحُروبِ الَّذينَ يُدافِعونَ عَن أَوطانِهِم وبِلادِهِم ، فَاشتاقَت نَفسُ صَلاحِ الدينِ ، لِلدِّفاعِ عَنِ المَظلومينِ المُعَذَّبِينَ .

وحِينَما بَلَغَ مِنَ العُمرِ خَمسًا وعِشرِينَ سَنَةً تَقَدَّمَ إِلَى مَيدَانِ القِتَالِ لِلمَرَّةِ الأُولَى مِنْ حَيَاتِهِ ؛ فَقَدْ أَرسَلَ السُّلطَانُ نُورُ الدِّين جَيشًا إِلَى مِصْرَ لِيُخَلِّصَهَا مِنَ الإِفرِنجِ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَيهَا وهَاجَمُوهَا ،

صَلاحُ الدينِ الأيوبيُّ

٥٣٢هـ — ١١٣٧م

وَجعلَ عمُّ صلاحِ الدِّينَ — وهُوَ أَسَدُ الدِّينِ شِيركُوه — قَائِدًا لِذَلِكَ الْجَيْشِ . فَذَهَبَ صَــلاحُ الدِّينِ الْعَالِمُ الأَدِيبُ ، وَالْوَطَنِيُّ الْمُخْلِصُ ، مَعَ عَمِّــهِ إِلى مِصْرَ ؛ لِلدِّفَاعِ عَنِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ الَّتِي هَجَمَ عَلَيْهَــا الْعَدُوُّ هَجَمَاتٍ كَثِيرَةً . وَهُنَا تَحَقَّقَتْ رَغْبَةُ صَلاحِ الدِّينِ فِيمَا اشْتَاقَتْ نَفْسُــهُ إِلَيْـهِ . وَأَظْهَرَ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ وَالْبُطُولَةِ مَا أَدْهَشَ جَمِيعَ الْقُوَّادِ . وطَرَدَ الأَعْدَاءَ شَرَّ طِرْدَةٍ ، وَتَمَّ النَّصْرُ لِجَيْشِ (شِيرْكُوه) ، فَعَيَّنَهُ الْخَلِيفَةُ الْفَاطِمِيُّ بِمِصْرَ وَزِيرًا لَهُ . فَأَقَامَ هُوَ وابْنُ أَخِيـهِ صَلاحُ الدِّينِ فِي قَصْرٍ جَمِيلٍ بِالْقَاهِرَةِ ، تُحِيطُ بِهِ الْحَدَائِقُ الْوَاسِــعَةُ ، الْمَمْلُوءَةُ بِالنَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ ، ويَقْرُبُ مِنْ نَهْرِ النِّيلِ ، الْعَذْبِ الْجَمِيلِ .

بَدَأَ صَلاحُ الدِّينِ يَتَقَرَّبُ مِنَ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ الكَرِيمِ ، وَيَخْتَلِطُ بِجَمِيعِ طَبَقَاتِهِ : الْغَنِيَّةِ وَالْمُتَوَسِّطَةِ والفَقِيرَةِ ، وَيَبْحَثُ أَحْوَالَ مِصْرَ وَالْمِصْرِيِّينَ ، وَيُدَقِّقُ فِي كُلِّ مَا يَرَى وَمَا يَسْمَعُ . فَأُعْجِبَ بِهِ الْمِصْرِيُّونَ كُلَّ الإِعْجَابِ ، وأَحَبُّوهُ كُلَّ الْحُبِّ ، وَتَمَنَّوْا أَنْ يَأْتِيَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي يَتَوَلَّى فِيهِ أَمْرَهُمْ ؛ لِيُخَلِّصَهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْحُكَّامِ والْوُزَرَاءِ ، واسْتِبْدَادِ الْجُنُودِ ، والْقَسْوَةِ والشِّدَّةِ فِي الْمُعَامَلَةِ . وقَدْ حَقَّقَ اللهُ مَا تَمَنَّاهُ الشَّعْبُ الْمِصْرِيُّ ؛ فَبَعْدَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ مَاتَ عَمُّهُ (شِيرْكُوهُ) ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ صَلاحُ الدِّينِ حُزْنًا شَدِيدًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ عَمَّهُ ، وكَانَ عَمُّهُ يُحِبُّهُ ويُعْجَبُ بِهِ . وقَدِ اخْتَارَ الْخَلِيفَةُ الْفَاطِمِيُّ بِمِصْرَ صَلاحَ الدِّينِ وزِيرًا لَهُ

بَدَلاً مِن عَمِّهِ ، فَخَفَّفَ ذَلِكَ الاخْتِيَارُ مِنْ شِدَّةِ حُزْنِهِ عَلَى عَمِّهِ .

عَرَفَ صَلَاحُ الدِّينِ أَحْوالَ الْبِلَادِ حِينَمَا كَانَ مُسَاعِدًا لِعَمِّهِ فِي السَّنَوَاتِ الَّتِي عَاشَهَا بِمِصْرَ ، وعَرَفَ أَسْبَابَ الشَّكْوَى فِي مِصْرَ مِنْ ظُلْمِ الْحُكَّامِ ، وَقَسْوَةِ الْجُنْدِ ، وَانْتِشَارِ الرِّشْوَةِ ، وَعَدَمِ الْعِنَايَةِ بِوَسَائِلِ الرَّيِّ ، وَوُجُودِ طَوَائِفَ مِنَ اللُّصُوصِ وَالْمُجْرِمِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا ، ولاَ يَخَافُونَ أَحَدًا مِنَ الْحُكَّامِ .

عَرَفَ صَلَاحُ الدِّينِ هٰذَا كُلَّهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، بَعْدَ دِرَاسَتِهِ الْعَمِيقَةِ ، وتَجْرِبَتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ . فَعَزَمَ فِي نَفْسِهِ عَزْمًا أَكِيدًا أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْمَظَالِمِ ،

فَمَنَعَ الظُّلْمَ ، وَنَشَرَ الْعَدَالَةَ التَّامَّةَ بَيْنَ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ ، وَرَدَّ الحُقُوقَ إِلَى أَصْحَابِهَا ، وَأَخَذَ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنَ الظَّالِمِ ، وَوَقَفَ بِجَانِبِ الْمَظْلُومِينَ ، وَمَنَعَ الرِّشْوَةَ ، وَعَاقَبَ كُلَّ مَنْ أَتَاهَا أَشَدَّ عِقَابٍ ، وَضَرَبَ عَلَى أَيْدِي اللُّصُوصِ وَالْمُجْرِمِينَ ، فَانْتَشَرَ الأَمْنُ فِي الْبِلَادِ ، وَاهْتَمَّ بِالرِّيِّ كُلَّ الاهْتِمَامِ ، وَنَظَّمَ تَحْصِيلَ الضَّرَائِبِ ، وَبَحَثَ أَحْوَالَ النَّاسِ ، وَفَتَحَ بَابَهُ لِطُلَّابِ الحَاجَاتِ ، وَجَلَسَ بِنَفْسِهِ لِلنَّظَرِ فِي الْمَظَالِمِ . وَأَعَدَّ جَيْشًا مِصْرِيًّا قَوِيًّا خَافَهُ الصَّلِيبِيُّونَ كُلَّ الخَوْفِ . فَأَحَبَّهُ الْمِصْرِيُّونَ كُلَّ الحُبِّ ، وَأَخْلَصُوا لَهُ كُلَّ الإِخْلَاصِ .

وَلَمَّا مَاتَ الخَلِيفَةُ الْفَاطِمِيُّ بِمِصْرَ أَعْلَنَ صَلَاحُ

الدِّينِ لِلْمِصْرِيِّينَ انتِهَاء الحُكْمِ الفَاطِمِيِّ لِلْبِلَادِ ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ حَاكِمًا عَلَى مِصْرَ مِنْ قِبَلِ سَيِّدِهِ نُورِ الدِّينِ الَّذِى كَانَ قَدْ زَادَ نُفُوذُهُ ، وَقَوِيَ سُلْطَانُهُ بِفَضْلِ انْتِصَارَاتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ عَلَى جُيُوشِ الصَّلِيبِيِّينَ . وكَانَ عُمْرُ صَلاحِ الدِّينِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ثَلَاثِينَ سَنَةً . وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ حُرَّاسًا مِنْ جُنُودِهِ الْمُخْلِصِينَ لَهُ . وَأَتَتِ الْوُفُودُ مِنَ الْبِلَادِ تُهَنِّئُهُ ، وَتَدْعُو لَهُ ، وَتَرْجُو أَنْ يَكُونَ عَصْرُهُ عَصْرَ سَعَادَةٍ وَهَنَاءَةٍ لِلْجَمِيعِ .

كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ الأَيُّوبِيُّ مُخْتَلِفًا كُلَّ الاخْتِلَافِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الحُكَّامِ الَّذِينَ حَكَمُوا مِصْرَ مِنْ قَبْلِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ عَادِلاً فِي حُكْمِهِ ، كَثِيرَ الْعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ . حَكَمَ الشَّعْبَ لِمَصْلَحَة

الشَّعْبِ ، وَأَصْغَى إِلَى شَكْوَى كُلِّ مَظْلُومٍ ، فَأَحَبَّهُ الشَّعْبُ كَمَا قُلْنَا ، وَتَعَلَّقَ بِهِ الْمِصْرِيُّونَ ، وَتَعَاوَنُوا مَعَهُ وَسَاعَدُوهُ ، وَوَقَفُوا بِجَانِبِهِ مُكَافَأَةً لَهُ ، وَنَصَرُوهُ عَلَى أَعْدَائِهِ .

سُرَّ صَلَاحُ الدِّينِ سُرُورًا كَثِيرًا حِينَمَا رَأَى حُبَّ الشَّعْبِ لَهُ ، وَتَعَلُّقَهُ بِهِ ، وَإِخْلَاصَهُ لَهُ ، فَأَعْلَنَ أَنَّهُ سَيَقْضِي عَلَى كُلِّ ظُلْمٍ ، وَلَنْ يَسِيرَ فِي حُكْمِهِ بِغَيْرِ الْعَدْلِ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَحْتَجِبَ عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ ، وَلَنْ يَتْرُكَ مُفْسِدًا أَوْ ظَالِمًا يَسْتَمِرُّ فِي ظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ . وَقَدْ وَفَى بِمَا وَعَدَ . وَلَمْ يُخْلِفْ وَعْدَهُ .

وَحِينَمَا اطْمَأَنَّ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى مِصْرَ ،

واستَتبَّ لَهُ الأَمرُ دَاخِلَ البِلادِ ، وقَوِىَ مَرْكَزُهُ ، أَخَذَ يُفَكِّرُ فِى تَنْفِيذِ الرَّغْبَةِ الَّتِى كَانَ يَشْتَاقُ إِلَيْهَا وَهُوَ صَغِيرٌ ، مِنْ طَرْدِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِس ، وَتَخْلِيص المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَذَاهُمْ .

فَجَهَّزَ جَيْشًا قَوِيًّا كَامِلَ الأَسْلِحَةِ ، كَثِيرَ العَدَدِ ، وَقَادَهُ بِنَفْسِهِ ، بَعْدَ أَنْ بَثَّ وَنَشَرَ رُوحَ الشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ ، وَالصَّبْرِ وَالإِخْلَاصِ فِى نُفُوسِ جُنُودِهِ ، وَذَكَّرَهُمْ بِأَنَّ مَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ سَيَكُونُ مِنَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يُدْخِلُهُمُ اللهُ جَنَّاتِهِ الوَاسِعَةَ الَّتِى أَعَدَّهَا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُجَاهِدِينَ .

سَارَ الجَيْشُ المِصْرِىُّ فِى حَمَاسَةٍ وَشَجَاعَةٍ ، وَقَطَعَ صَحْرَاءَ سِينَا فِى أَيَّامٍ شَدِيدَةِ الحَرِّ فِى فَصْلِ

الصَّيفِ ، مِنْ غَيرِ أَنْ تَضعُفَ قُوَّتُهُ ، أَوْ تَقِلَّ
عَزِيمَتُهُ ، أَوْ يُصِيبَهُ مَلَلٌ أَوْ تَعَبٌ ؛ حَتَّى وصَلَ
الجَيْشُ كُلُّهُ إِلَى دِمَشْقَ . وكَانَتْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ
خَاضِعَةً لِلصَّلِيبِيِّينَ ، فَفَتَحَهَا الجَيْشُ المِصْرِيُّ بَعْدَ قِتَالٍ
لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً . ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَى البِلَادِ الأُخْرَى
يَفْتَحُهَا ، وكُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْ بَلَدٍ مِنَ البِلَادِ ،
أَوْ حِصْنٍ مِنَ الحُصُونِ انْتَشَرَ الخَوْفُ فِي نُفُوسِ
الحُرَّاسِ الَّذِينَ يَحْرُسُونَهَا ، وَجَرَوْا هَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ
صَلَاحِ الدِّينِ وَجَيْشِهِ المِصْرِيِّ الشُّجَاعِ البَاسِلِ .

وَأَخِيرًا ذَهَبَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ ، وَحَاصَرَهُ
حِصَارًا شَدِيدًا ، وَأَظْهَرَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ أَنْوَاعِ
الشَّجَاعَةِ مَا أَدْهَشَ القُوَّادَ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ . وَلَمَّا رَأَوْا

أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْوُقُوفَ أَمَامَ صَلاحِ الدِّينِ ، وَلاَ يُمْكِنُهُمْ رَدُّهُ عَنْ دُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَلَّمُوا لَهُ الْمَدِينَةَ .

دَخَلَ جَيْشُ صَلاَحِ الدِّينِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مُنْتَصِرًا عَلَى الأَعْدَاء ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ إِنْسَانًا ، وَلَمْ يَأْسِرْ أَحَدًا ، وَلَمْ تَنْهَبْ جُيُوشُهُ بَيْتًا مِنَ الْبُيُوتِ ، فَقَدْ أَمَّنَ الْجَمِيعَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ ، وَعَامَلَ الْكُلَّ بِالشَّفَقَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَدَهِشَ الأَعْدَاءُ كَثِيرًا لِعَدْلِهِ ، وَشَفَقَتِهِ ، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ .

وَحِينَمَا كَانَ مَاشِيًا فِي طُرُقَاتِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مَسِيحِيٌّ كَبِيرُ السِّنِّ ، يُعَلِّقُ صَلِيبًا ذَهَبِيًّا فِي رَقَبَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

« أيُّها القائِدُ العَظيمُ ، لَقَدْ كُتِبَ لَكَ النَّصْرُ على أعدائِكَ ، فَلِماذا لَمْ تُعَذِّبْهُمْ ؟ ولِماذا لَمْ تَنْتَقِمْ مِنْهُمْ ، وتَفْعَلْ معهُمْ مِثْلَ مَا فَعَلُوا مَعَكم ؟ وأنتَ تعلَمُ حقًّا أنَّهُمْ أتَوْا كَثيراً مِنَ الفَظائِعِ ، ونَهَبُوا الأمْوالَ ، وقَتَلُوا النِّساءَ والأطفالَ والرِّجالَ حِينَما فَتَحُوا بَيْتَ المَقْدِسِ » .

فَقالَ لَهُ صلاحُ الدِّينِ : أيُّها الشَّيخُ ، إنَّ دِينى يَمْنَعُنى مِن تَعذيبِ أىِّ إنسانٍ ، وَضَميرِى يَمْنَعُنى مِن الانتِقامِ . ولَن أفعَلَ مِثلَ ما فَعَلُوا .

فَقالَ لَهُ الشَّيخُ : وَهَل دينُكُم يَمنعُكُمْ مِن الانتِقامِ مِن قَومٍ بَدءوكُمْ بِالعَداوةِ ، وَعَذَّبوا قومَكُمْ بِكُلِّ أنواعِ العَذابِ ؟

فَقالَ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ : نَعَمْ إنَّ دِينَنا يَمنَعُنا مِن

أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَ أعدائِنا فى عِنادِهِمْ ، ويَأْمُرُنا أَنْ نَكُونَ أَوْفِياءَ بِوُعُودِنا ، وأنْ نَعْفُوَ عَمَّنْ أساءَ إِلَيْنَا ، ونَصْفَحَ عَمَّنْ أذْنَبَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ .

فَقالَ الشَّيْخُ : « نِعْمَ الدِّينُ دِينُكُمْ ، وإنِّى أَحْمَدُ اللهَ عَلَى أنْ هَدَانِى إِلَى مَا فِيهِ خَيْرِى فى أيَّامِى الأَخِيرَةِ مِنْ هٰذِهِ الحَياةِ » . ثُمَّ سَأَلَ : « ومَاذا يَفْعَلُ مَنْ يُرِيدُ الدُّخُولَ فى دِينِكُمْ ؟ »

فَقالَ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ : « يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ واحِدٌ ، وَمُحَمَّداً — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ — رَسُولُهُ ، ويَفْعَلُ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ ، ويَبْتَعِدُ عَمَّا نَهَى اللهُ عَنْهُ » . وعِنْدَ ذٰلِكَ أسْلَمَ الشَّيْخُ ، وحَسُنَ إسلامُهُ ، وأسلَمَ مَعَهُ كَثِيرٌ مِنْ أبْناءِ قَوْمِهِ .

وَلَمَّا جُمِعَتْ غَنَائِمُ الْحَرْبِ ، وقُسِّمَتْ بَيْنَ الْجُنُودِ والْأُمَرَاءِ ، تَنَازَلَ صَلَاحُ الدِّينِ عَنْ نَصِيبِهِ لِلْفُقَرَاءِ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ ، وجَعَلَ الْأَسْرَى الَّذِينَ كانُوا مِنْ نَصِيبِهِ أحْرَارًا .

وكَانَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْرَى فَتَاةٌ فَرَنْسِيَّةٌ ، فَتَقَدَّمَتْ جِهَةَ صَلَاحِ الدِّينِ ، وقالَتْ لَهُ : « لَقَدْ قَتَلْتَ أَبِي فِي الْحَرْبِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُ الْقَتَّالُ ، وأَسَرْتَ أخَوَيْنِ لِي ، وأَخَذْتَ أَمْلَاكَنا الَّتِي كُنَّا نَمْلِكُهَا ، فَلَمْ يَبْقَ لِي مَنْ يُنْفِقُ عَلَيَّ ، ولَمْ يَبْقَ لِي ما آكُلُ مِنْهُ . وإِنَّكَ الْيَوْمَ تَمُنُّ عَلَيَّ بِجَعْلِي حُرَّةً ؛ لِكَيْ يَزْدَادَ تَعَبِي وعَذَابِي » .

ضَبَطَ صَلَاحُ الدِّينِ نَفْسَهُ ، ولَمْ يَتَأَثَّرْ مِنْ تِلْكَ الشَّتَائِمِ الْمُرَّةِ ، بَلْ عَفَا عَنْهَا ، وابْتَسَمَ فِي وجْهِهَا ، وسَأَلَهَا : ما اسْمُ أَخَوَيْكِ ؟ فَذَكَرَتْ لَهُ اسْمَيْهِما .

فَأَرْسَلَ جُنْدِيًّا لِيُحْضِرَهُمَا ، فَحَضَرَا ، وحَضَرَ مَعَهُمَا الْقائِدُ الَّذِى كانَ الأَخَوَانِ مِنْ نَصِيبِهِ فى الْقِسْمَةِ ، فَطَلَبَ إِلَيْهِ صَلاحُ الدِّينِ أَنْ يَبِيعَهُ هٰذَيْنِ الأَسِيرَيْنِ . فَامْتَنَعَ الْقائِدُ عَنْ أَخْذِ الثَّمَنِ عِنْدَ ما عَرَفَ غَرَضَ سَيِّدِهِ ، وتَرَكَهُما حُرَّيْنِ ، ولٰكِنَّ صَلاحَ الدِّينِ صَمَّمَ عَلَى أَنْ يَدْفَعَ لِلْقائِدِ ثَمَنَهُمَا مُضاعَفاً ، ثُمَّ رَدَّ لَهُمَا ما كانا يَمْتَلِكانِهِ مِنَ الأَمْوَالِ . ثُمَّ أَتَى جِهَةَ الْفَتاةِ وسأَلَها : « هَلْ ما زِلْتِ عِنْدَ رَأْيِكِ مِنْ أَنِّى مُجْرِمٌ قَتَّالٌ ؟ »

فَقالَتِ الْفَتاةُ : « عَفْوًا يا سَيِّدِى ، فَإِنَّمَا هِىَ شِدَّةُ الْحُزْنِ عَلَى أَبِى الَّذِى قُتِلَ فى الْحَرْبِ ، وفَقْدِ مَنْ كانَ يُنْفِقُ عَلَيَّ ، وضَياعِ مالِى ، وخَوْفِى مِمَّا تَأْتِى بِهِ الأَيَّامُ ، وما كُنْتُ أَسْمَعُهُ فى بِلادِى خَطَأً عَنْ ظُلْمِ الْمُسْلِمِينَ ؛

كُلُّ هٰذَا جَعَلَنِى أنطِقُ بِأَشياء لا أفهمُها . وإِنَّنى مَعَ هٰذَا لَسْتُ يائِسَةً مِن صفحِكَ ، وكَرَمِ عَفوِكَ » .

ولَمَّا قَامَتْ وأرادَت الِانصِرافَ ، قالَ لها صَلاحُ الدِّينِ : إِلَى أَيْنَ أنتِ ذَاهِبَةٌ ؟

فَأَجابَتْ : إِلَى بِلادِى .

فَسَأَلَهَا : وماذَا سَتَقُولِينَ لِقَومِكِ ؟

أَجابَتْ سَأَقُولُ لِلْمُتَعَصِّبِينَ مِنْهُمْ كَلِمَةَ الحَقِّ فِى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ تَرَكَتْ بَيْتَ المَقْدِسِ هِىَ وَأَخَوَاهَا بَعْدَ أَنْ أَسْلَمُوا . فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى قَوْمِهَا أَخَذَتْ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَتَذْكُرُ لَهُمْ مَحَاسِنَهُ ، وَتَحْكِى مَا رَأَتْهُ بِنَفْسِهَا مِنْ حُسْنِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ لَهَا . وَعَدْلِ صَلَاحِ الدِّينِ ، وَشَفَقَتِهِ

وَعَظَمَتِهِ ، وَنُبْلِهِ وَإِنسَانِيَّتِهِ . فَلَمْ تُعْجِبْهُمْ هٰذِهِ الدَّعْوَةُ مِنْ فَتَــاةٍ مِنْهُمْ ، وَاتَّفَقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ سِرًّا عَلَى قَتْلِهَا ، وَقَتَلُوهَا ظُلْمًـا ؛ لِأَنَّهَا تَقُولُ الصِّدْقَ ، وَتَدْعُو إِلَى الحَـقِّ ، وَتُنَادِي بِالإِسْلاَمِ . فَمَـاتَتْ شَهِيدَةً مُجَاهِدَةً فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِعْلاَءِ كَلِمَتِهِ .

وَصَلَت الأَخْبَــارُ إِلَى أُورُبَّةَ ، وَانْتَشَرَ بَيْنَ الأُورُبِّيِّينَ أَنَّ صَلاَحَ الدِّينِ دَخَلَ بَيْتَ المَقْدِسِ مُنْتَصِرًا ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ ، فَتَأَثَّرُوا كُلَّ التَّأَثُّرِ ، وَهَاجَتْ نُفُوسُهُمْ ، وَاجْتَمَعَ المُلُوكُ وَالأُمَرَاءُ ، وَتَشَاوَرُوا مَعَ رِجَالِ الدِّينِ مِنَ الإِفْرِنْجِ ، وَاتَّفَقُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى جَمْـعِ جُيُوشٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، لِتَخْلِيصِ الأَرَاضِي المُقَدَّسَةِ مِنْ يَدَيْ صَلاَحِ الدِّينِ .

وَقَدْ وَصَلَتِ الْجُيُوشُ الصَّلِيبِيَّةُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فِي الْحَمْلَةِ الثَّالِثَةِ ، تَحْتَ قِيَادَةِ سَبْعَةٍ وَعِشْرِينَ مَلِكاً وَأَمِيرًا ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هٰؤُلَاءِ الْمُلُوكِ (رِيتْشَارْدُ) مَلِكُ الْإِنْجِلِيزِ ، الْمُلَقَّبُ قَلْبَ الْأَسَدِ ، وَ (فِيلِيبُ) مَلِكُ فَرَنْسَا ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْقُوَّادِ وَالْمُلُوكِ .

وَحِينَمَا اجْتَمَعَ قُوَّادُ الصَّلِيبِيِّينَ وَمُلُوكُهُمْ فِي بِلَادِ الشَّامِ أَرْسَلُوا إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ لِيَعْرِضُوا عَلَيْهِ مَطَالِبَهُمْ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ ، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ جُنُودِهِ الْأَقْوِيَاءِ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَحَيَّاهُمْ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا مَا يُرِيدُونَ . فَقَالُوا لَهُ : « إِنَّكَ تَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّنَا جِئْنَاكَ بِجُيُوشٍ لَا قُدْرَةَ لَكَ

عَلَيْنَا ، وَأَنَّ أَوْرُبَّةَ قَدْ أَرْسَلَتْ إِلَيْكَ مُلُوكَهَا وَأَبْطَالَهَا . فَمِنَ الْخَيْرِ لَكَ وَلِقَوْمِكَ أَنْ تُخْلِيَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي الْحَالِ . وَإِذَا لَمْ تُخْلِهَا فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ » .

فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ : « إِنَّكُمْ تَعْتَزُّونَ بِكَثْرَتِكُمْ وَلٰكِنَّنَا نَعْتَزُّ بِقُوَّةِ إِيمَانِنَا ، وَصِدْقِ عَزَائِمِنَا . وَإِنَّكُمْ قَوْمٌ تُحِبُّونَ الدُّنْيَا ، وَتَتَعَلَّقُونَ بِهَا ، أَمَّا نَحْنُ فَقَوْمٌ نُحِبُّ الْآخِرَةَ ، وَنَعْمَلُ لَهَا . وَلَنْ يَنْتَصِرَ مَنْ أَحَبَّ الْحَيَاةَ . وَلَنْ يَنْهَزِمَ مَنْ طَلَبَ الْمَوْتَ وَأَرَادَهُ » .

فَقَامَ (رِيتْشَارْدُ) مِنْ مَكَانِهِ ، وَقَالَ : « يَا صَلَاحَ الدِّينِ ، إِنِّي (رِيتْشَارْدُ) ! إِنِّي قَلْبُ الْأَسَدِ ! نَحْنُ نَعْتَزُّ بِقُوَّتِنَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ » .

ثُمَّ أَتَى بِقَضِيبٍ مِنَ الحَدِيدِ ، يَبْلُغُ طُولُ قُطْرِهِ ثَلَاثَةَ سَنْتِيمِتْرَاتٍ ، وَوَضَعَ أَحَدَ طَرَفَيْهِ عَلَى نَضَدٍ (تَرَبِيزَة) وَالطَّرَفَ الآخَرَ عَلى نضَدٍ آخَرَ ، ثُمَّ رَفَعَ سَيْفَهُ ، وَضَرَبَ بِهِ القَضِيبَ ، فَقَطَعَهُ قِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَجَعَ (رِيتْشَارْدُ) إِلَى مَكَانِهِ رَافِعًا رَأْسَهُ ، فَخُورًا بِنَفْسِهِ ، مُعْجَبًا بِقُوَّتِهِ . وَقَدْ صَفَّقَ لَهُ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ تَصْفِيقًا طَوِيلاً ، وَلَكِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ نَظَرَ إِلَى (رِيتْشَارْدَ) فِي احْتِقَارٍ وَاسْتِهْزَاءٍ ، وَلَمْ يُبَالِ ، ثُمَّ قَالَ : « لَيْسَتْ أُمُورُ الحَرْبِ رَاجِعَةً إِلَى صَلَابَةِ السُّيُوفِ ، وَقُوَّةِ الضَّرْبِ ، وَإِنَّمَا مَرْجِعُهَا إِلَى قُوَّةِ القُلُوبِ ، وَقَطْعِ السُّيُوفِ ، وَالمَهَارَةِ فِي الحُرُوبِ » ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْدِيلاً مِنَ

الحَرِيرِ الرَّقِيقِ ، وَرَمَاهُ إِلَى أَعْــلَى ، ثُمَّ أَخْرَجَ سَــيْفَهُ ، وَتَلَقَّفَ بِهِ المِنْدِيلَ فِي أَثْنَاءِ نُزُولِهِ ، فَقَطَعَهُ قِطْعَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَيْنِ ، فَدَهِشَ الحَـاضِرُونَ ، وَعَجِبُوا كُلَّ العَجَبِ ، وَسَكَتَ الجَـمِيعُ سُكُوتًا تَامًّا .

وَلَمَّا سَقَطَتْ قِطْعَتَا المِنْدِيلِ عَلَى الأَرْضِ مَدَّ صَلَاحُ الدِّينِ سَيْفَهُ ، وَرَفَعَهُمَا فَوْقَ طَرَفِهِ المُتَطَرِّفِ ، وَتَقَدَّمَ جِهَــةَ (رِيتْشَارْدَ) ، وَرَمَاهُمَا فِي حِجْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « بِمِثْلِ هٰذِهِ السُّيُوفِ سَوْفَ نَلْقَاكُمْ غَدًا » . ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِمْ .

قَامَ (رِيتْشَارْدُ) مِنْ مَكَانِهِ ، وَأَخْرَجَ سَيْفَهُ ، وَأَخَذَ قِطْعَةً مِنَ المِنْدِيلِ ، وَجَعَلَ يُمَرِّرُهَا عَلَى حَدِّ سَيْفِهِ مُحَاوِلًا قَطْعَهَا ، فَلَمْ يَنْجَحْ ، فَزَادَتْ دَهْشَتُهُ

المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ . وَزَادَ إِعْجَابُهُمْ بِصَلاحِ الدِّينِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الصَّلِيبِيُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا أَرْضَ الشَّامِ ، وَاشْتَدَّ الخِلافُ ، وَجَعَلَ كُلُّ مَلِكٍ مِنْهُمْ يَكِيدُ لِلآخَرِ ، وَاشْتَدَّتِ العَدَاوَةُ بَيْنَ مَلِكِ الإِنْجِلِيزِ وَمَلِكِ فَرَنْسَا . وَقَدْ طَوَّقَتْ الجُيُوشُ الصَّلِيبِيَّةُ مَدِينَةَ عَكَّا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَلٰكِنَّ حَرَارَةَ الصَّيْفِ قَدِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمْ ، وَانْتَشَرَتِ الأَمْرَاضُ بَيْنَ جُنُودِهِمْ ، وَازْدَادَتِ العَدَاوَةُ وَالكَرَاهِيَةُ بَيْنَهُمْ ، فَرَجَعُوا جَمِيعًا إِلَى بِلادِهِمْ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ (رِيتْشَارْدُ) الَّذِى اسْتَمَرَّ مُحَاصِرًا لِعَكَّا بِجَيْشِهِ . وَدَافَعَ الأَهْلُونَ عَنِ المَدِينَةِ دِفَاعًا مَجِيدًا . وَلَمْ يَسْتَطِعْ (رِيتْشَارْدُ) دُخُولَهَا إِلاَّ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ آخِرُ

جُنْدِيٌّ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ الْمُدَافِعِينَ عَنْ حُصُونِهَا .
أَمَّا صَلَاحُ الدِّينِ فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي إِعْدَادِ الْجُيُوشِ ، وَتَحْصِينِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِمُلَاقَاةِ الصَّلِيبِيِّينَ فِي مَوْقِعَةٍ فَاصِلَةٍ أَخِيرَةٍ .

الْتَقَى جَيْشُ (رِيتْشَارْدَ) مَعَ جَيْشِ صَلَاحِ الدِّينِ ، فَعَسْكَرَ الْجَيْشَانِ وَجْهًا لِوَجْهٍ عِنْدَ بَلْدَةَ (حِطِّينَ) . وَكَانَ رِيتْشَارْدُ يَخْرُجُ لِرُؤْيَةِ أَحْوَالِ جَيْشِهِ لَيْلًا ، لِيَطْمَئِنَّ عَلَى رَاحَةِ قُوَّادِهِ وَجُنُودِهِ ، وَلِيَشْتَرِكَ مَعَهُمْ فِي مَرَحِهِمْ وَسُرُورِهِمْ ، وَيَنْشُرَ الشَّجَاعَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيُخَفِّفَ عَنْهُمْ آلَامَ الْبُعْدِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ ، وَيُذَكِّرَهُمْ بِلَذَّةِ النَّصْرِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا فَارَقُوا بِلَادَهُمْ .

وَكَانَ مَعَــهُ فَتَاةٌ أَخْلَصَتْ لَهُ ، وَعَمِلَتْ عَلَى تَوْفِيرِ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ لَهُ . وَكَانَتْ تَمْشِي وَرَاءَهُ لَيْلاً فِي أَيِّ جِهَةٍ يَسِيرُ فِيهَا ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَسْمَعُ بِأَنَّ هُنَاكَ مُؤَامَرَةً تُدَبَّرُ فِي السِّرِّ لِقَتْلِ (رِيتْشَارْدَ) . وَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ بِخَوْفِهَا عَلَيْهِ لَمْ يَهْتَمَّ بِقَوْلِهَا . وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي بَحَثَتِ الْفَتَاةُ عَنْ (رِيتْشَارْدَ) فِي خَيْمَتِهِ فَلَمْ تَجِدْهُ ، فَخَرَجَتْ تُفَتِّشُ عَنْهُ ، فَتَاهَتْ فِي الطَّرِيقِ ، وَوَصَلَتْ إِلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَرَآهَا أَحَدُ الْحُرَّاسِ مِنْ بُعْدٍ ، فَظَنَّهَا جُنْدِيًّا يَتَجَسَّسُ أَخْبَارَهُمْ ، وَيَعْرِفُ مَوَاقِعَهُمْ ، فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ أَصَابَهَا ، فَوَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ مُلَطَّخَةً بِدِمَائِهَا . وَصَادَفَ أَنْ مَرَّ صَلَاحُ الدِّينِ كَعَادَتِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ بِتِلْكَ الْجِهَةِ ، فَسَمِعَ عَنْ قُرْبٍ

صَوْتًا مُحْزِنًا ، فَتَقَدَّمَ جِهَةَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ ، فَوَجَدَ هٰذِهِ الْفَتَاةَ تَتَوَجَّعُ وَتَتَأَلَّمُ مِنْ جُرْحِهَا . وَلَمَّا رَأَتْ صَلَاحَ الدِّينِ خَافَتْ مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا ، فَأُغْمِيَ عَلَيْهَا ؛ وَلَمْ تَعُدْ تُحِسُّ شَيْئًا مِمَّا يَجْرِي حَوْلَهَا . فَحَمَلَهَا صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَشَى بِهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْرَبِ خَيْمَةٍ فِي الْمُعَسْكَرِ ، وَطَلَبَ الطَّبِيبَ ، فَأَخْرَجَ السَّهْمَ مِنْ فَخِذِهَا ، وَأَخَذَ فِي عِلَاجِهَا بَعْدَ أَنْ أَوْصَاهُ بِهَا صَلَاحُ الدِّينِ خَيْرًا . وَبَعْدَ أَيَّامٍ شُفِيَتْ مِنْ مَرَضِهَا . وَكَانَتْ تَشْتَاقُ لِأَنْ تَتْرُكَ مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجْرُؤْ عَلَى التَّصْرِيحِ بِرَغَبَاتِهَا . وَبَقِيَتْ فِي الْمُعَسْكَرِ .

الْتَقَى الْجَيْشَانِ ، وَاقْتَتَلَا قِتَالًا طَوِيلًا أَظْهَرَ

فِيهِ (رِيتشَارْدُ) مِنَ الْمَهَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى تَنْظِيمِ الْجَيْشِ مَا جَعَلَ صَلاَحَ الدِّينِ يُعْجَبُ بِالرَّجُلِ وَيَحْتَرِمُهُ ؛ مَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْعَدَاوَةِ . وَهٰكَذَا تَكُونُ نَفسُ الْقَائِدِ الْكَبِيرِ ، يُقَدِّرُ الشَّجَاعَةَ وَالْبُطُولَةَ ، وَلَوْ كَانَتْ بَيْنَ الْأَعْدَاءِ .

أَسَرَ الْمُسلِمُونَ بَعضَ الصَّلِيبِيِّينَ ، فَلَمَّا عَرَضُوهُم عَلَى صَلاحِ الدينِ فى خَيمَتِهِ عَرَفَت الفَتاةُ فى الأَسرَى قائِدًا مِن القُوادِ المُلازِمِينَ لِرِيتشاردَ ، فَطَلَبَت إِلَى صَلاحِ الدينِ أَن يَسمَحَ لَهَا بِالتَّحَدُّثِ مَعَ ذٰلِكَ القائِدِ ، فَلَمَّا سَمَحَ لَها سَأَلَتْهُ عَن سَيِّدِهِ ، فَأَخبَرَها بِأَنَّ هُناكَ مُؤامَرَةً تُدَبَّرُ لِقَتلِهِ فى هٰذِهِ اللَّيلَةِ ، وَأَنَّ هُناكَ مِن أَعدائِهِ الفَرَنسِيِّينَ وَبَعضِ الإِنجِليزِ مَن اتَّفَقوا

فيما بَينَهُم ، وَصَمَّموا عَلَى قَتلِهِ . ثُم قالَ لَها : « لَقَد سَمِعتُ مِنهُم ذٰلِكَ فى أثناء المَوقِعَةِ . وَلَمّا أَرَدتُ الذَّهابَ إِلى سَيِّدى لِإِخبارِهِ وَقَعتُ أَسيراً فى أَيدِى المُسلِمِينَ » .

فَتأَلَّمَت الفَتاةُ كُلَّ الأَلَمِ ، وَجَعَلَت تَبكِى بِصَوتٍ يُسمَعُ . فَسَمِعَها صَلاحُ الدينِ ، فَأَتَى إِلَيها ، وَأَخَذَ يَسأَلُها عَن سِرِّ بُكائِها ، فَأَخبَرَتهُ بِكُلِّ شَىءٍ .

وَقَد كانَ مِن عادَةِ (ريتشاردَ) أَن يَخرُجَ كُلَّ لَيلَةٍ بَعدَ انتِهاءِ القِتالِ ، لِيَرَى بِنَفسِهِ القَتلَى وَالجَرحَى مِن جُنودِهِ ، وَمَعَهُ ثَلاثَةٌ مِن خاصَّةِ قُوّادِهِ . وَفى تِلكَ اللَّيلَةِ الَّتى دَبَّرَ فِيها أَعداؤُهُ المَكيدَةَ خَرَجَ وَحدَهُ ؛ لِأَنَّ أَحَدَ القُوّادِ الثَّلاثَةِ أُسِرَ ، وَالآخَرَينِ قُتِلا فى المَعرَكَةِ . وَفى ناحِيَةٍ مِنَ المَيدانِ رَأَى قائِدًا مَرمِيًّا عَلَى وَجهِهِ ، فَجَلَسَ عَلَى

رُكبَتَيهِ ، وَأَخذَ يُقَلِّبُهُ فِى رِفقٍ ، فَعرَفَ أَنَّهُ قائِدٌ فَرَنسِىٌّ مِنَ القُوّادِ الَّذينَ كانَ يُقرِّبُهُم مِن مَجلِسِهِ ، وَظَنَّهُ مَيِّتًا ، فَتَأَثَّرَ وَوَقَفَ حَزِينًا ، ثُمَّ مَشَى .

وَفى الحالِ قامَ ذٰلِكَ القائِدُ الفَرَنسِىُّ مِن مَكانِهِ ، وَنَفَخَ فى بوقٍ صَغيرٍ كانَ مَعَهُ ، فَدَهِشَ (ريتشارد) كُلَّ الدَّهشَةِ حينَما رَأَى كَثيرِينَ يَقومونَ مِن أَماكِنِهِم ، وَيَذهَبونَ جِهَتَهُ فى الظَّلامِ ، فَتَراجَعَ إِلَى الوَراءِ ، وَقَرُبَت قُواهُ تَخونُهُ ، وَلٰكِنَّهُ تَذَكَّرَ سَيفَهُ فَأَخرَجَهُ ، ثُمَّ صاحَ فى وَجهِ الخائِنينَ قائِلاً : « مَن أَنتُم ؟ »

فَأَجابَهُ القائِدُ الفَرَنسِىُّ : « نَحنُ سَنَقطَعُ اليَومَ رَقَبَتَكَ » .

فَقالَ (ريتشاردُ) : « لَن يَكونَ لَكُم ذٰلِكَ ! إِنَّنى

(ريتشاردُ) ! إِنَّنى قلبُ الأسَدِ ! إِنَّهُ لم يُخلَق ذٰلِكَ الرَّجُل الَّذى يَقتُلُنى ، وَلٰكِن أَخبِرونِى أَوَّلاً : هَل فيكمُ إِنجليزِىٌّ ؟ »

فَأَجابَهُ القائِدُ الفَرَنسِىُّ : « نَعَم » . فَهَجَمَ عَلَيهِم (ريتشَاردُ) ، وَلٰكِنَّهُم التَفُّوا حَولَهُ ، وَتَكاثَروا عَلَيْهِ ، وَتَعِبَتْ يَدُهُ مِن كَثرَةِ الضَّربِ ، وَأَخذَتْ قُوَّتُهُ تَضعُفُ ، فَاعتَقَدَ أَنَّهُ سَيُقتَلُ ، وَلَن يَنجُوَ مِنَ القَتلِ . وَفِى تِلْكَ اللَّحظَةِ وَصَلَ جُنُودٌ مِنَ المُسلِمِينَ النُّبَلاءِ الأَبطَال ، فَأَخَذُوا يَضرِبُونَ بِسُيُوفِهِمْ هؤُلَاءِ الخَوَنَةَ ، حَتَّى أَبعَدُوهُمْ عَن (رِيتشَارْدَ) ، وَقَتَلُوهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ طَلَبُوا إِلَى (رِيتشَارْدَ) أَنْ يَذهَبَ مَعَهُمْ إِلَى مُعَسكَرِ سَيِّدِهِمْ صَلاحِ الدِّينِ الَّذِى

أَرْسَلَهُمْ لِإِنْقَاذِهِ مِنْ أَيْدِي أَعْدَائِهِ .

لَمْ يَتَرَدَّدْ (رِيتشاردُ) فِي الذَّهَابِ مَعَ هٰؤُلَاءِ الْجُنُودِ إِلَى مُعَسْكَرِ صَلَاحِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ فِي صَلَاحِ الدِّينِ النُّبْلَ وَالشَّرَفَ وَالْبُطُولَةَ ، وَالتَّرَفُّعَ عَنِ الصِّفَاتِ الدَّنِيئَةِ ، وَلِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الْقَائِدَ الَّذِي يُخَلِّصُ عَدُوَّهُ مِنَ الْمَوْتِ قَائِدٌ نَبِيلٌ قَادِرٌ ، لَنْ يُفَكِّرَ فِي أَنْ يَأْخُذَهُ أَسِيرًا بَعْدَ إِنْقَاذِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ مِنَ الْإِنْجِلِيزِ وَالْفَرَنْسِيِّينَ .

قَابَلَ صَلَاحُ الدِّينِ (رِيتشاردَ) مُقَابَلَةَ الصَّدِيقِ لِصَدِيقِهِ ، لَا الْعَدُوِّ لِعَدُوِّهِ ، وَأَكْرَمَهُ كُلَّ الْإِكْرَامِ . وَحِينَمَا كَانَا يَتَكَلَّمَانِ مَعًا هَمَسَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي أُذُنِ أَحَدِ التَّابِعِينَ لَهُ ، فَخَرَجَ مِنَ الْخَيْمَةِ . وَبَعْدَ

قلِيلٍ دُخَلَت الفَتَـــاةَ . فَلَمَّـا رَأَتْ (ريتشاردَ) أَسرَعَتْ إِلَيْهِ ، ثُمَّ انحَنَتْ عَلَى يَـــدِهِ فَقَبَّلَتها . فَعَجِبَ مِنْ أَمرِ مَجِيئِهَا إِلَى مُعَسكَرِ صَلاَحِ الدِّينِ ، وَبَقَائِهَا فِيهِ ، وَاعتَقَدَ أَنَّهَا خَائِنَةٌ ، وَلٰكِنَّ صَلاَحَ الدِّينِ هَـــدَّأَ مِنْ ثَوْرَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّهَا كَانَتْ السَّبَبَ فِي تَخلِيصِهِ مِنَ المَوْتِ فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ . وَقَصَّت الفَتَاةُ عَلَى (ريتشاردَ) مَا وَجَدَتْهُ فِي صَلاحِ الدِّينِ وَقُوَّادِهِ المُسلِمِينَ مِنَ النُّبلِ وَالشَّرَفِ ، وَالكَرَمِ وَالوَفَاءِ ، وَحُبِّ الإِنسَانِيَّةِ .

وَشَكَرَ (ريتشاردُ) لِصَلاَحِ الدِّينِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ إِنقَاذِ حيَاتِهِ .

فَقَـــالَ لَهُ صَلاَحُ الدِّينِ : إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ

إِلاَّ الْوَاجِبَ . وَلاَ شُكْرَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبِ .

وَقَدِ انْتَهَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ صَلاَحِ الدِّينِ وَ (رِيتْشَارْدَ) بِانْتِصَارِ صَلاَحِ الدِّينِ انْتِصَارًا تَامًّا . وَعُقِدَتْ بَيْنَهُمَا مُعَاهَدَةٌ كَانَ مِنْ بَيْنِ شُرُوطِهَا وَقْفُ الْقِتَالِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ لِمُدَّةِ ثَلاثِ سَنَوَاتٍ وَثَلاثَةِ أَشْهُرٍ .

رَجَعَ (رِيتْشَارْدُ) إِلَى بِلادِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَقِّقَ أَمَلَهُ الَّذِي كَانَ يَحْلُمُ بِهِ ، وَهُوَ دُخُولُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَالاِسْتِيلاَءُ عَلَيْهِ . وَلٰكِنَّهُ صَمَّمَ فِي نَفْسِهِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ لِلْحَرْبِ بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ مُدَّةُ الْهُدْنَةِ . وَقَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ بِقَلِيلٍ أَرْسَلَ إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ كِتَابًا يَذْكُرُ لَهُ فِيهِ أَنَّهُ سَيَرْجِعُ

لِلْحَرْبِ بَعْدَ انْتِهَاءِ زَمَنِ الْهُدْنَةِ ؛ وَلَنْ يَرْجِعَ عَنْ فِكْرِهِ حَتَّى يُخَلِّصَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مِنْ أَيْدِى الْمُسْلِمِينَ

فَأَرْسلَ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ خِطَابًا كُلُّهُ رِقَّةٌ وَذَوْقٌ ، بَيَّنَ لَهُ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَفَرٌّ مِنْ هَزِيمَتِهِ فَإِنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ يَنْهَزِمَ لِرِيتشاردَ لاَ لِمَلِكٍ آخَرَ غَيْرِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ صَلاَحُ الدِّين ، وَخَلَّصَ بيتَ الْمَقْدِسِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، رَجَعَ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، وأَخَذَ يُثَبِّتُ مُلْكَهُ ، وينَظِّمُ حُكُومَتَهُ ، ويَبْنِي الْحُصُونَ والْقِلاَعَ والْمَسَاجِدَ . فَبَنَى قَلْعَةً عَظِيمَةً فَوْقَ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ ، وَبَنَى حَوْلَ الْقَاهِرَةِ سُورًا عَظِيمًا مِنَ الْحَجَرِ يَحْمِيهَا مِنْ شَرِّ الأَعْدَاءِ ،

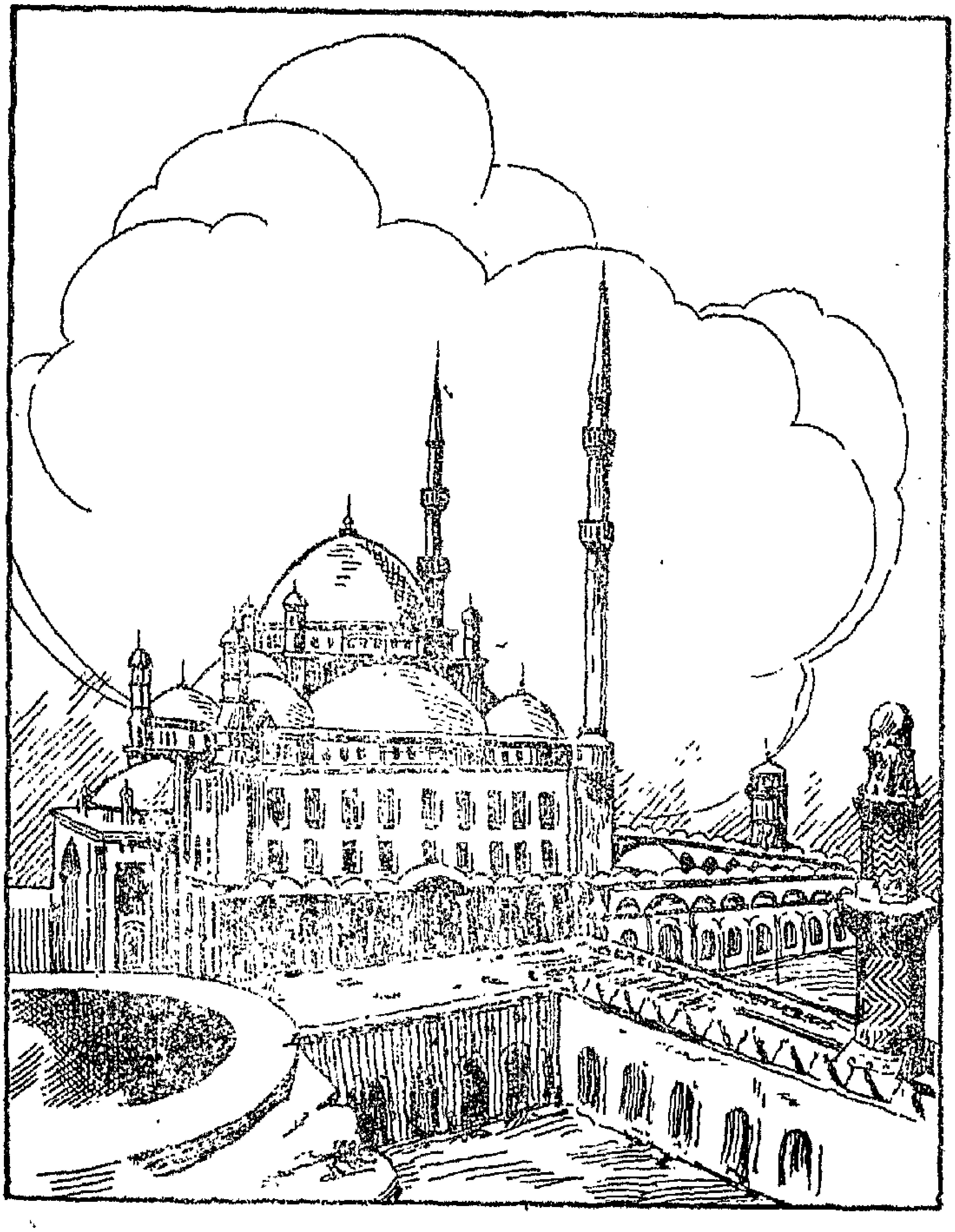

قَلعةُ صَلاحِ الدِّينِ بِالقَاهِرة

وَأَخَذَ يَنْشُرُ التَّعْلِيمَ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَوْجَدَ فِي مِصْرَ الْمَدَارِسَ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا أَبْنَاءُ الْفُقَرَاءِ وَأَبْنَاءُ الْأَغْنِيَاءِ مَعًا . وَاهْتَمَّ بِأَحْوَالِ الشَّعْبِ كُلَّ الاهْتِمَامِ ، فَأَحَبَّهُ الْجَمِيعُ لِعَدْلِهِ وَنُبْلِهِ ، وَوَدَاعَتِهِ وَحِلْمِهِ ، وَشَجَاعَتِهِ وَكَرَمِهِ . وَأَخَذَ الْكُلُّ يَمْدَحُ صَلَاحَ الدِّينِ ، وَمَدَحَهُ الشُّعَرَاءُ بِقَصَائِدَ نَفِيسَةٍ .

وَقِيلَ إِنَّهُ كَانَ جَالِسًا يَوْمًا فِي خَيْمَتِهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ، فَوَقَفَتْ أَمَامَ الْخَيْمَةِ سَيِّدَةٌ مَسِيحِيَّةٌ ، تَصِيحُ وَالْحُزْنُ يَخْنُقُ صَوْتَهَا ، حَتَّى ارْتَمَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، فَأَبْعَدَهَا الْحُرَّاسُ عَنِ الْخَيْمَةِ ، وَلَكِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ الرَّحِيمَ ، الطَّيِّبَ الْقَلْبِ حِينَمَا

سَمِعَ صوتَها أَمَرَ بإدخالِها فى الحالِ ، فَلَمَّا وَقَفَت بينَ يديهِ سألها : ماذا أصابَكِ أيتُها السيّدةُ الحزينةُ الباكيةُ ؟

فأجابَت : لقد اختطَفَ لصوصُ الأطفالِ ولَدى ، وأُسِرَ زوجى فى الحربِ ، وهُوَ الَّذى يُنفِقُ عَلَىَّ .

فتألَّمَ صلاحُ الدينِ ، وحزِنَ كثيرًا لِحالِها ، وأَمَرَ فى الحالِ بإخراجِ زوجِها مِن بَينِ الأسرَى ، ثُمّ طَلَبَ مِن جُنودِهِ أَن يَبحَثوا عَنِ الغُلامِ المَسروقِ ، فأحضَروهُ لِأُمِّهِ ، ففَرِحَت السيّدةُ حتَّى بكَت مِن شِدَّةِ الفَرَحِ ، وأَخَذَت تَمدَحُ صلاحَ الدينِ ، وتَدعو لَهُ بأن يُبارِكَ اللهُ فى عُمرِهِ .

فقالَ صَلاحُ الدينِ : نَحنُ لَم نَفعَل أَيَّتُها السَّيدَةُ إِلاَّ ما أَمَرَنا بِهِ دِينُنا الكَريمُ .

قالَت السَّيدَةُ : هَل يأمُرُ دِينُكُم يا مَولاىَ بِالرَّحمَةِ وَالعَطفِ عَلَى الأَعداءِ ، وَمُساعَدَةِ المَنكوبينَ وَالضُّعَفاءِ ؟

قالَ صَلاحُ الدينِ : نَعَم يا سَيِّدَتى ، فَالإِسلامُ دِينُ اللهِ فى هَـذِهِ الدُّنيا ، وَهوَ رَحمَةٌ لِلنَّاسِ جَميعًا ، وَسَلامٌ لِكُلِّ الأُمَمِ .

قالَت السَّيدَةُ : وَكَيفَ أَستَطيعُ يا سَيِّدى أَن أَكونَ مُسلِمَةً ؛ فَإِنِّى قَد أَحبَبتُ هَـذا الدينَ الكَريمَ مِن صِفاتِكُمُ الجَميلَةِ ، وَأَخلاقِكُمُ النَّبيلَةِ ؟

قالَ صَلاحُ الدينِ : طَريقَةُ الإِسلامِ سَهلَةٌ ، تَشهَدِينَ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ .

فَنَطَقَت المرأةُ بِالشّهادَتَينِ ، وَدَخَلَ نورُ الإسلام قَلبَها ، ثُمَّ تَلَفّتَت وَراءها ، فَوَجَدَت زَوجَها الّذى كانَ أَسيراً يَقولُ مِثلَ قَولِها . وَأَسلَمَت المَرأَةُ ، وَأَسلَمَ مَعَها زَوجُها بِفَضلِ رَحمَةِ هٰذَا البَطَلِ العَظِيمِ .

وَقَد اتَّسَعَتْ مَملَكَةُ صَلاحِ الدِّينِ ، فَكَانَ مِنْهَا مِصْرُ ، وَالحَرَمانِ الشَّرِيفَانِ ، وَجُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ بِلادِ الشّامِ . وَكَفاهُ فَخْرًا أَنْ يُخَلِّصَ بَيْتَ المَقْدِسِ مِن أَيْدِى الإِفْرِنْجِ ، وَأَنْ يَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ فِى مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ سَجَّلَهَا لَهُ التَّارِيخُ فِى صُحُفِ البُطُولَةِ وَالعَظَمَةِ . وَكَفَاهُ شَرَفًا أَنْ يُوَحِّدَ بَيْنَ العَرَبِ ، وأَنْ يَكُونَ عَصْرُهُ عَصْرًا لِلوِحْدَةِ العَرَبِيَّةِ ، وَأَنْ يُحْيِيَ القَوْمِيَّةَ العَرَبِيَّةَ . ولاَ عَجَبَ

فَقَدْ كَانَت الشُّعُوبُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا تُطِيعُه عَنْ إِيمَانٍ وَعَقِيدَةٍ ، وَتُسَاعِدُهُ كُلَّ الْمُسَاعَدَةِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُطِيعًا لِلّٰهِ ، مُجَاهِداً فِى سَبِيلِ اللهِ .

فَصَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِىُّ يُعَدُّ بِحَقٍّ بَطَلاً لِلْوِحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، والْقُــوَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، والْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَلَمْ يَعِشْ طَوِيلاً بَعْدَ أَن اِنْتَصَر عَلَى الإِفْرِنْجِ فِى سُورِيَّةَ .

فَقَدْ أَصَابَهُ بَرْدٌ شَدِيدٌ ، فَاضْطُرَّ إِلَى أَنْ يَمْكُثَ فِى الْفِرَاشِ أَيَّامًا . ولَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وأَحَسَّ أَنَّهُ سَيَمُوتُ بِسَبَبِ هٰذَا الْمَرض تَنَازَلَ عَنْ كُلِّ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ لِلأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ ، وبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ والْمَدَارِس .

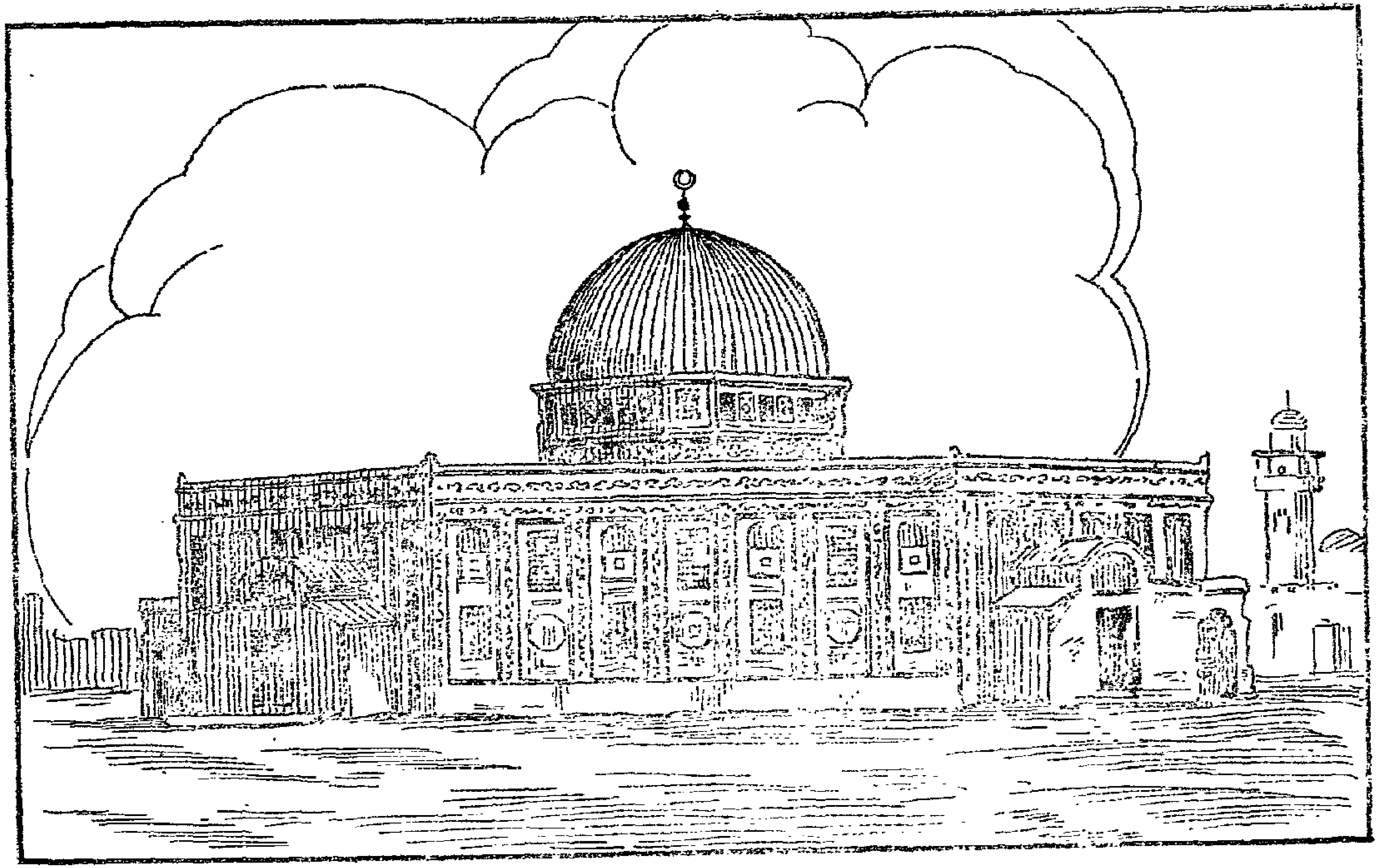

المسجد الأقصى

وفي يوم الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ و ٤ من مارس سنة ١١٩٣ م . مات صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعمره ٥٧ سنة . ولما مات لم يجدوا في خزانته الكبيرة إلا دينارًا ونصف دينار ؛ لأنه كان ينفق كل أمواله في مساعدة المحتاجين والفقراء .

مات البطل المثالي النبيل ، والعربي العظيم ، والعالم الأديب ، والقائد الشجاع ، والمصلح العادل ، والتقي الصالح . مات صلاح الدين بعد أن حرر كثيرًا من البلاد العربية من حكم الإفرنج المعتدين ، وبعد أن أحيا القومية العربية ، ووحد بين الشعوب العربية . وقد أصيب العرب بذهول

شَدِيدٍ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ حِينَمَا مَاتَ صَلَاحُ الدِّينِ . وحَزِنَ الْعَالَمُ الإسْلَامِيُّ كُلُّهُ لِمَوْتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا . ولاَ عَجَبَ ، فَمَوْتُ صَلَاحِ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ مَوتَ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَوْتًا لآمَالِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ . وقَدْ اجْتَمَعَتْ الآلافُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيُوَدِّعُوا صَلَاحَ الدِّينِ الْوَدَاعَ الْأَخِيرَ .

وَإِنَّ الإِصْلَاحاتِ الكَثِيرَةَ الَّتِى قامَ بِهَا صَلَاحُ الدِّينِ ، وَأَخلاقَهُ النَّبِيلَةَ ، وَصِفاتِهِ العَظِيمَةَ ، وَدِفاعَهُ عَن القَومِيَّةِ العَرَبِيَّةِ ، وَانتِصاراتِهِ الْمُتَكَرِّرَةَ عَلَى الْمُعتَدِينَ الظَّالِمِينَ جَعَلَت الْمَجَالَ مُتَّسِعًا أَمامَ مَن رَثاهُ مِنَ الأُدَباءِ وَالشُّعَراءِ . وَقَد رَثاهُ العِمادُ الكاتِبُ بِقَصِيدَةٍ تَبلُغُ مِائَتَينِ وَاثنَينِ وَثَلاثِينَ بَيتًا مِن الشِّعرِ ، بَيَّنَ فِيها أَعمالَهُ العَظِيمَةَ ،

وَفَضائِلَهُ الكَثِيرَةَ . وَقالَ العِمادُ فى قَصِيدَتِهِ : لَو كانَ صَلاحُ الدِّينِ فى عَصرِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَنَزَلَت آياتٌ فى تَمجِيدِهِ وَتَعظِيمِهِ . وَمِن هٰذِهِ القَصِيدَةِ النَّفِيسَةِ نَذكُرُ قَلِيلاً مِنَ الأَبياتِ السَّهلَةِ الَّتى يَستَطِيعُ التِّلمِيذُ فَهمَها :

أَينَ الَّذِى كانَت لَهُ طاعَتُنا مَبذُولَةً ، وَلِرَبِّهِ طاعاتُهُ
لا تَحسِبوهُ ماتَ شَخصٌ واحِدٌ فَمَماتُ كُلِّ العالَمِينَ مَماتُهُ
مَن لِليَتامَى وَالأَرامِلِ راحِمٌ مُتَعَطِّفٌ مَفضُوضَةٌ صَدَقاتُهُ
لَو كانَ فى عَصرِ النَّبِىِّ لَأُنزِلَت فى ذِكرِهِ مِن ذِكرِهِ آياتُهُ
مَلَأَت مَهابَتُهُ البِلادَ ، فَإِنَّهُ أَسَدٌ ، وَإِنَّ بِلادَهُ غاباتُهُ

وَقَد مَرَّت مِئاتُ السِّنِينَ ، عَلَى مَوتِ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِىِّ ، وَما زالَ اسمُهُ يُذكَرُ فى مُقَدِّمَةِ عُظَماءِ العالَمِ ،

وَأَبطالِهِ الخالِدِينَ ، بِكُلِّ إِعجابٍ وَفَخارٍ . وَما زَالَ القُوَّادُ وَالمُلوكُ فى الشَّرقِ وَالغَربِ يَدرُسُونَ تارِيخَ حَياتِهِ ؛ لِيَعلَمُوا مَواطِنَ بُطولَتِهِ وَعَظَمَتِهِ ؛ كَى يَسيروا عَلَى نَهجِها ، وَيَهتَدُوا بِهَديِهَا .